(١)

أباطيل حول الاحتفال بالمولد النَّبوي

أنحتفل بميلاد الرسول أم بميلاد الرسالة؟

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

حبُّ المسلمين للنبيِّ وحقيقته :

المسلمون جميعًا يحبُّون رسول الله ﷺ ، ولا يتمُّ إيمانُ المسلم إلا بحُبِّ الله ورسوله ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين »[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار »[(٢)].

حبُّ رسول الله ﷺ ، جزء من الإيمان ، ولكن المهم أن يُترجم هذا الحبُّ إلى عمل واتِّباع ، كما يُترجم حبُّ الله تعالى كذلك : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١).

كثير من المسلمين يظنُّون أنهم يُحبُّون رسول الله ﷺ ، بمُجرَّد أن يحتفلوا بالمولد ويتحدَّثوا فيه ، وأفواه بعضهم لا تزال رطبة برائحة الخمر ، والعياذُ بالله .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) ، كلاهما في الإيمان ، وأحمد (١٢٨١٤) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣) ، وابن ماجه في المقدمة (٦٧) ، عن أنس .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (١٢٠٠٢) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤) ، عن أنس ، وينظر شرحه ودلالة معانية في خطبة (محبة الله ورسوله) من هذه المجموعة .

حُبُّ رسول الله ﷺ ، لا بدَّ أن يتمثَّل في اتِّباعه ، في العمل بسنَّته ، في نصرة دينه ، في التمكين لكلمته في الأرض ، هذا هو الحُبُّ الحقيقيُّ لرسول الله ﷺ .

وهذا ما كان عليه أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، لقد ترجموا حبَّه إلى عمل بدينه ، واتِّباع لكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ . كان هذا الحبُّ عملاً وجهادًا وبذلاً في سبيل الله للأنفس والأموال ، ما ضنُّوا بنفس ، ولا بخِلوا بمال ، بعد أن اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة ، وتمَّت الصفقة ، فبذلوا المَبِيع ليتسلَّموا الثَّمن ، والثَّمن جنة عرضها السماوات والأرض .

بدعة الموالد ونشأتها :

ثم جاء عهد على المسلمين ابتدعوا ما لم يأذن به الله ، ابتدعوا فكرة الموالد ، وهذه الموالد جاءت بعد أربعة قرون لم يحدث فيها شيء من ذلك . فكان هؤلاء الذين يُسَمَّوْن (الفاطميين) ، وما هم من نسب فاطمة في قليل ولا كثير ، إنهم العُبيديون كما يعرف ذلك المؤرِّخون ، ليسوا من نَسَب فاطمة في شيء ، ولكنَّ هؤلاء كانت لهم أهداف دينية وسياسية ، هم من غُلاة الشيعة ، من الإسماعيليَّة الباطنيَّة ، الذين استولَوا على المغرب ، ثم استولَوا على مصر ، وبنَوا الجامع الأزهر[1] ليكون مركزًا للدعوة الإسماعيلية الباطنية ، ولكنَّ الله خيَّب مكرهم ، وأصبح الأزهر بعد صلاح الدين الأيوبي مركزًا للدعوة إلى السنة والجماعة .

هؤلاء ابتدعوا للناس أمورًا تشغلهم ، فكان منها الموالد ، على طريقه الساسة الطغاة المُحنَّكين إذا أرادوا أن يُدبِّروا أمرًا ، ويمكروا مكرًا : اخترعوا للشعوب مهرجانات وأعيادًا لا تنتهي ، فهم يخرجون من عيد إلى عيد ، ومن مهرجان إلى مهرجان ، حتى يتلهَّى الناس بذلك ، ويستغرقوا فيه ، وهكذا فعل هؤلاء : مولد النبي ، ومولد الحسين ، ومولد السيدة ، ومولد الولي الفلاني .

---

(١) أرسى جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية في مصر حجر أساس الجامع الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ الموافق أبريل سنة ٩٧٠م . وصُليت فيه أول جمعة في ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ وفرغ من بنائه في ١٧ رمضان سنة ٣٦١هـ الموافق ٢٢ يونيه ٩٧٢م ، بعد أن استغرق بناؤه عامين . انظر : الأزهر في ألف عام دكتور أحمد محمد عوف صـ١٩ .

وهكذا شُغل الناس بهذه الأشياء عن تتبُّع القضايا العامة ، وما يجري في السياسة؟ وكيف تُدار الأمور؟

هؤلاء شغلوا الناس بهذه الموالد ، وما كانت هذه الموالد عند المسلمين ، ولم يعرفوها من قبل . هكذا اخترعوا الموالد ، وتوارثها المسلمون بعد ذلك .

وما زلنا نذكر ونحن صغار ، كيف كنا نفرح بهذه المناسبة ، التي تُذبح فيها الذبائح ، ويكثُر فيها الطعام والشراب ، ويأكل الناس ما لذَّ وطاب ، وتوزَّع علينا الحلوى والمشروبات في المساجد ، وتُقصُّ علينا قصَّة المولد ، ومعظمها خرافات ما أنزل الله بها من سلطان . هكذا كنَّا نفرح[1].

ولكن الأمور يجب أن تُردَّ إلى نصابها ، يجب أن تُوزن الأمور بميزان القرآن والسنَّة ، هل وَرَدَ شيء من الشعائر أو التعبُّدات يتعلَّق بشهر ربيع الأول؟ لا والله .

أحداث وذكريات في شهر ربيع الأول :

شهر ربيع الأول وُلد فيه رسول الله ﷺ ، وإن كان اليوم الذي ولد فيه لم يُعرف ولم يُحدَّد ، فقد اختلفوا فيه على روايات شتَّى ، وإن اشتهر بين الناس أنه الثاني عشر من ربيع الأول ، ولكن لا يوجد على ذلك دليل صحيح[2] .

النبيُّ ولد في ربيع الأول ، كما أنه تُوفِّي ﷺ في ربيع الأول ، كما أنه هاجر من مكة إلى المدينة في ربيع الأول ، لم تكن الهجرة في المحرم ـ كما يتوهَّم الكثيرون ـ الهجرة في ربيع الأول ، ولكن حينما أراد عمر رضي الله عنه ، أن يجعل للمسلمين تاريخًا ، كما أنَّ للأمم المتحضِّرة تاريخا ، فكَّر هو والصحابة : ماذا يجعلون للمسلمين من التاريخ ؟ بأيِّ حادثة يبدأون ؟ لم يبدأوا بميلاد النبيِّ ﷺ ، كما فعل النصارى ، بدأوا تاريخهم بميلاد المسيح ، وذلك لأنَّ ميلاد المسيح كان معجزةً أو إرهاصًا بمعجزة نبيٍّ ، نبيٌّ وُلد من غير أب ، ولهذا اتُّهمت أُمه فأنطقه الله في المهد صبيًّا ليبرِّئها :

---

(١) ينظر : ذكريات الشيخ حول الموالد ، وحكم الاحتفال بها ، في الجزء الأول من كتاب (ابن القرية والكتّاب) صـ٣٥-٣٨ ، نشر دار الشروق ، القاهرة .

(٢) ينظر كتاب : نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ، للعلامة محمود باشا الفلكي .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم:٢٩-٣١) ، فكان هذا الميلاد آية خارقة ، فلا عجب أن يبتدئوا به تاريخهم .

ولكن ميلاد نبيِّنا ﷺ لم يكن كذلك ، وإن رُويت فيه روايات من نحو خمود نيران فارس ، وغيض بحيرة ساوة ، وانشقاق إيوان كسرى ، ونحو ذلك ، وهذه كلُّها لم تصحَّ بها الأحاديث[1] .

اختيار الهجرة للتاريخ :

إنما أراد عمر أن يكون للمسلمين حدث مهم يبدأ به التاريخ ، فكانت الهجرة ، لأنها بداية إقامة المجتمع الإسلامي ، وإنشاء دار الإسلام ، بداية تكوين الدولة المسلمة ، التي تُنفَّذ فيها أحكام الإسلام : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (الحج:٤١) .

الميلاد في ربيع الأول ، والوفاة في ربيع الأول ، ولكن لم يتعلَّق بذلك حكم شرعي .

---

(١) لما كانت ليلة ولد رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرفة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادي السماوة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ... انظر : الإصابة (٥٢٤/٦) ، قال العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على كتاب : «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» : فهذا الحديث ليس بصحيح ولا يجوز قوله ولا إنشاده ، ويزيده منعًا أنه يتعلق بشأن من شؤون النبي ﷺ ، وبأمور خارقة للعادة . ولا يغرنَّك ذكر بعض العلماء له في كتب السيرة أو التاريخ ، مثل ابن جرير الطبري في تاريخه (١٣٢/٢ ، ١٣١) ، وأبي نُعيم الأصفهاني في دلائل النبوة ص٩٦-٩٩ ، فإن هؤلاء المؤلفين وأمثالهم رحمهم الله تعالى ، يذكرون في كتبهم هذه : كلَّ ما ورد في الباب مما صحَّ ومما لم يصح ، لتسجيله ومعرفته ، وتمحيصه وغربلته ، لا لصدقه وصحَّته (صـ١٩ ، ١٨) .

هذا وقد سجل البوصيري في بردته الشهيرة ، هذه الأساطير في حديثه عن المولد النبوي ، وقلَّده أمير الشعراء أحمد شوقي في (نهج البردة) ، فأورد نفس الأساطير ، ممَّا أشاع هذه الأباطيل بين الناس .

هناك خمسة أشهر ليس فيها أيَّ عبادة مُعيَّنة ، ولا أيَّ شعيرة مُحَدَّدة : صفر ، وربيع الأول ، وربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة[1]. كلُّ هذه الأشهر لا يتعلَّق بها عبادة خاصَّة . أما الأشهر الأخرى فلها مزايا مُعيَّنة : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ (التوبة:٣٦)، هي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . ومنها : شعبان[2] ، ورمضان[3] ، وشوَّال[4] ، وهو من أشهر الحج .

فالأشهر الخمسة ليس فيها عبادة ، ولذلك مَن يسأل : هل يطلب في يوم المولد صيام نهاره ، أو قيام ليله ، أو نحو ذلك؟ كلُّها أسئلة غلط ، لا يوجد أيُّ عبادة متعلِّقة بشهر ربيع الأول كلِّه .

الامتنان بالبعثة وليس بالمولد :

والقرآن حينما امتنَّ على المسلمين برسوله ﷺ ، لم يمتنَّ عليهم بمولده ، إنما امتنَّ عليهم ببعثته ، برسالته ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢)، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

---

(١) ربيع الآخر ، وجمادى الآخرة ، هذا هو التعبير الصحيح ، بدلاً من تعبير ربيع الثاني ، وجمادى الثانية .

(٢) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر . . . وما رأيتُه أكثر صيامًا منه في شعبان . متفق عليه : رواه البخاري (١٩٦٩) ، ومسلم (١١٥٦) ، كلاهما في الصيام ، كما رواه أحمد (٢٤٧٥٧) ، وأبو داود (٢٤٣٤) ، والنسائي (٢٣٥١) ، كلاهما في الصيام .

(٣) شهر رمضان ، هو الشهر الذي ميَّزه الله بنزول القرآن الكريم : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨٥)، وخصَّه بعبادة الصوم التي أضافها الله تعالى إلى نفسه : «الصوم لي وأنا أجزي به» . متفق عليه : رواه البخاري (٢٧٦٠) ، ومسلم (١٧٩٥) ، وشرَّفه بليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر:٣). وينظر : لطائف المعارف فيما لمواسم العام من وظائف ، للحافظ ابن رجب .

(٤) عن أبي أيوب الأنصاري ، أن رسول الله ﷺ قال : «مَن صام رمضان ، ثم اتبعه ستًّا من شوال ، كان كصيام الدهر» . رواه مسلم في الصيام (١١٦٤) ، وأحمد (٢٣٥٣٣) ، وأبو داود (٢٤٣٣) ، والترمذي (٧٥٩) ، كلاهما في الصيام . وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ﴾ (البقرة:١٩٧).

رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤) ، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة:١٥١)، وكان هذا استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، حينما دعا ربَّه ، فقال : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٩).

ضلال العرب قبل البعثة وهداية النبي لهم :

فبعث الله إليهم رسولاً منهم ، من أنفسهم ، من أشرفهم حَسَبًا ، وأوسطهم نسبًا ، يعرفونه ، ويعرفون مَدْخله ومَخْرجه ، وسيرته ونشأته . فما عرَفوا فيه إلا الصدق ، وإلا الأمانة ، وإلا الخُلُق الكريم ، في حياته كلِّها .

هداهم الله برسوله ﷺ ، من الجهالة الجَهلاء ، ومن الضَّلالة العمياء ، وأيُّ ضلال أبْين ممَّا كان فيه أهل الجاهلية ، لذلك كان عمر رضي الله عنه يقول : إنَّما تُنقض عُرى الإسلام عُروة عُروة ، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهلية[1] . لأنه لا يعرف ماذا قدَّم الإسلام؟ وماذا قدَّم رسول الله ﷺ؟ وماذا صنع بالناس؟ وأيَّ ضلال أزاله؟ وأيَّ فساد نقل الناس منه إلى الصلاح ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور؟

الجاهلية أفسدت عقل الإنسان وتفكيره :

لا بدَّ أن تعرف الجاهلية ، الجاهلية التي فسد فيها عقل الإنسان ، وفسد فيها قلبه . فسد فيها عقل الإنسان إلى حدِّ أن يعبد حجارة ينحتها بيديه : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصافات:٩٥)، يصنع الإنسان الصنم ثمَّ يسجد له ، ويسأله أن يكشف عنه الضرَّ ، ويفرِّج عنه الكُرَب ، وينصره على عدوِّه . وهو منحوت بيديه! هكذا كانوا يصنعون .

بل روى البخاريُّ ، عن أبي رجاء العطارديِّ قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثْوة من

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٤٣) .

تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ، ثم طفنا به[1]. وضع على التراب شيئًا من الحليب ، حتى يصبح كالطين أو الصلصال ، ثمّ يُشكِّلونه فيصبح إلهًا !

أيُّ ضلال أبين من هذا الضلال ؟ !

بل كان بعض العرب يعبدون أصنامًا يُشكِّلونها من التمر ، من العجوة ، فإذا وقع عليها الذُباب لم تستطع أن تُردَّ الذباب عن نفسها ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣) .

بل كان أحدهم يَصْطَحب إلهه هذا في سفره ، يَتَبرَّك به ، ليدفع عنه السُّوء ، ويدفع عنه الأذى ، ولكنه إذا فني زادُه ، ونَفِد طعامه وشرابه ، فماذا يصنع ؟ إنه لا يجد أمامه إلا هذا الإله ، فيستدير إليه فيُفطر بثلثه ، ويتغدَّى بثلثه ، ويتعشَّى بالباقي !

أيُّ ضلال أبين من هذا الضلال؟!

أفسدت الجاهليَّة عقل الإنسان إلى هذا الحدِّ . الوثنيَّة تجْني على البشرية ، وكم نرى في عصرنا أناسًا إلى اليوم يعبدون الأحجار ، أو يعبدون الأشجار ، أو يعبدون الأبقار . هكذا رأيناهم بأعيننا ، في عصرنا هذا ، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين ، في عصر الكمبيوتر ، وغزو الفضاء ، وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات .

الجاهلية أفسدت قلب الإنسان وعاطفته :

الجاهلية أفسدت عقل الإنسان ، كما أفسدت قلبه وعاطفته ، حتى إنه ليئد أولاده من إملاق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ (الأنعام:١٥١)، أو خشية إملاق : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ (الإسراء:٣١)،

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٧٦) .

وبخاصَّة البنات : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير:٨،٩) ، كانوا يعتبرون ولادة البنت مصيبة أو جريمة يُتوارَى منها ، كما صرَّح القرآن : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾(النحل:٥٨،٥٩)، يسير في الأزقَّة والمنعطفات بعيدًا عن الطرقات العامة ، حتى لا يلقاه أحد ، ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل:٥٩) ، أيرضي بالواقع ويقبل الذلَّ؟ أم يتخلَّص من هذه البلوى ، ويدسُّ هذا المولود في التراب ؟

جريمة أيُّ جريمة ، لم يكن القتل بالسيف فيريحها ، ولكنَّه الوأد . الوأد : أن يحفر لها حفرة ، ثمَّ يدفنها فيها حيَّة ويهيل عليها التراب ، بيديه يفعل هذا .

الجاهلية عمَّت العالم كله :

أفسدت الجاهليَّة عقل الإنسان ، وأفسدت قلبه . ولم تكن هذه الجاهلية في بلاد العرب وحدها ، فربَّما كانت بلاد العرب خيرًا من بلاد أخرى . كلُّ العالم كان في جاهلية .

الجاهليَّة في الحضارة الهندية :

بلاد الهند كان فيها في القرن السادس الميلادي (ثلاثمائة وثلاثون مليون إله ، صنم)! هكذا ذكر المؤرِّخون[1] ، لأنَّ كلَّ شيء نافع أو جميل أصبح إلهًا عندهم ، في البيت الواحد عدَّة آلهة ، في الشوارع ، في الطرقات ، كلُّ ما يُصوَّر ويُشكَّل جعلوه آلهة ، بل قُوَى الطبيعة المختلفة من أنهار وأشجار ونباتات وحيوانات جعلوها آلهة .

ثم من الناحية الاجتماعية قسَّموا الناس إلى طبقات أربع : هؤلاء خُلقوا من فم الإله ، وهؤلاء خُلقوا من ذراعيه ، وآخرون خُلقوا من ركبتيه ، وآخرون خُلقوا من

---

(١) انظر : ما كتبه السيد أبو الحسن الندوي عن الوثنية المتطرِّفة في الهند ، خلال القرن السادس الميلادي ، في كتابه القيِّم : (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) صـ٤٧ ، ٤٨ ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت .

قدميه! وهؤلاء هم المنبوذون الأنجاس الذين يحرُم مسُّهم. وهذه الطبقات لا تتغيَّر، ولا يستطيع الإنسان أن ينتقل من طبقة إلى طبقة مهما بلغ من العلم والعمل والخُلُق. كان ذلك في الهند.

الجاهلية في الحضارة الفارسية:

وكان هناك في فارس: إله الخير وإله الشرِّ، إله النور وإله الظلمة. وكان إله الشرِّ يتمثَّل في النار التي تُعبد هناك، ويُرمى لها بالوقود باستمرار، وكان هناك الطبقات أيضًا المتنازعة والمتنافسة، وكان كسرى هذا من سُلالة الآلهة لا يستطيع أحد أن يرقى إليه.

كان العالم كلُّه في فساد وضلال حينما بُعث محمد ﷺ، وأرسله ربُّه رحمة للعالمين.

لهذا كان الامتنان بالبعثة، ولم يكن الامتنان بالميلاد. البعثة هي النعمة العظيمة، التي ينبغي أن تُذكر فتُشكر: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١). مقابل هذه النعمة: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢).

بعثة النبيِّ ﷺ أعظم نعمة:

أعظم نعمة منَّ الله بها علينا هي بعثة محمد ﷺ، أرسله ربُّه بالهدى ودين الحقِّ؛ ليُظهره على الدين كلِّه، أرسله بالقرآن ليكون للعالمين نذيرًا، أرسله رحمةً للعالمين، وحُجَّةً على الخلق أجمعين: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥،١٦)، إنها نعمة عظيمة علينا نحن المسلمين.

الاحتفال بالرسالة وكيفيَّته:

فعلينا إذا أردنا أن نحتفل: أن نحتفل بميلاد الرسالة، لا بميلاد الرسول، أن

يكون حديثنا عن الرسالة ، عن البعثة ، عمَّا صنعه محمد ﷺ . هذا هو الشيء الذي ينبغي أن نهتمَّ به ، وأن تدور أحاديثنا حوله .

لا مانع إذا جاءت مثل هذه الذِّكريات ، أن نُذكِّر الناس برسول الله ﷺ ، أيْ : برسالته ، بأخلاقه ، بسيرته ، ولكن لا نجعل الناس يعيشون في الأوهام والخرافات والقصص ، ولا نخترع أحفالاً ، ونحو ذلك .

إنَّ الله أكرمنا بمحمد ﷺ ، ولا يمكن أن نصل إلى الله ، وإلى رضوانه إلا إذا مشينا خلفه ، كما قال الجُنيد رحمه الله : الطرق كلُّها مسدودة ، إلا مَن سار خلف محمد ﷺ[1] .

الرسول هو الأسوة المثلى لكلِّ المؤمنين :

لقد جعل الله في رسوله الأسوة المثلى العامة لجميع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٢١)، هو الأسوة العُليا ، هو القدوة المثلى في حياته كلِّها .

يستطيع كلُّ إنسان أن يجد في سيرة رسول الله ﷺ ، ما يتَّخذ منه نبراسًا ونورًا ، لا يوجد من الأنبياء مَن حفلت حياته بمثل هذا . بعض الأنبياء يمكن أن يُقْتدَى به في جانب من الجوانب .

سليمان عليه السلام يُمكن أن يَقْتديَ به الحاكم ، أو يقتديَ به الرجلُ الغنيُّ .

داود عليه السلام يمكن أن يقتديَ به أيضًا الإنسان الذي مَلَكَ ، ولكنَّ المُلك لم يجعله يطغى أو يتجبَّر ، بل ظلَّ يعمل بيده ، ويأكل من صناعة الدروع ، كما في الحديث : « وإنَّ نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده »[2].

المسيحُ عليه السلام يمكن أن يقتديَ به الرجل الزاهد أو الفقير ، ولكن إذا أردتَ أن تقتديَ بالمسيح عليه السلام وأنت غنيٌّ ، فكيف تُقلِّد المسيح وتهتدي به وتتشبَّه ،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٥٧) .

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢) ، عن المقدام .

وهو لم يملك مالاً ؟ كيف يستطيع الزوج أن يقتدي بالمسيح في حياته الزوجيَّة ، وهو لم يَتَزوَّج ؟ كيف يستطيع الأب أن يقتديَ به ، وهو بالطَّبع لم يلد ؟ كيف يستطيع الحاكم أن يقتديَ به ، وهو لم يحكم ؟ كيف يستطيع المسالم والمحارِب أن يقتديا به في سلمه وحربه ، وهو لم يُسالم ، ولم يُحارب ؟

إنَّما الذي سالم وحارب ، وعاش فترةً محكومًا وفترةً حاكمًا ، وعاش في الفقر وعاش في الغنى ، وعاش في الضِّيق وعاش في السَّعة ، وتزوَّج امرأة وعاش معها ، وتزوَّج عدَّة نساء ، ومن زوجاته الصغيرة ومنهنَّ الكبيرة ، ومنهنَّ البكر ومنهنَّ الثَّيِّب ، وكان له أولاد ، وكان له أحفاد ، منهم مَن عاش ، ومنهم مَن مات في حياته ، إنما هو محمد ﷺ ، الأسوة العامة لكلِّ المؤمنين .

كلُّ إنسان في هذه الحياة الحافلة يجد في سيرة رسول الله ﷺ ما يتَّخذ منه الهداية والعبرة ، والأُسوة والقدوة ، ولهذا قال : ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ (الأحزاب:٢١) ، لكم جميعًا ، كلكم .

علينا أن نتمثَّل رسول الله ﷺ إن كنَّا نُحبُّه حقًّا ، ونعايشه ، ونفقه سيرته ، ونحاول أن نقبس من هُداه ، ونأخذ من سناه . سنجد فيها النور ، سنجد فيها مكارم الأخلاق التي تمَّمها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق »[1] .

صلَّى الله عليك وسلَّم يا رسول الله ، وجعلنا الله من أتباعك الصادقين ، اللهم آمين .

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢) ، وقال مخرِّجوه : صحيح وهذا إسناد قوي ، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤/١) ، والحاكم في التاريخ (٦١٣/٢) ، وصحَّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب حسن الخلق (٢٣٠/٦) ، وفي الكبرى كتاب الشهادات (١٩١/١٠) ، عن أبي هريرة بلفظ : « إنما بعثت لأتمِّم صالح الأخلاق »، وقال ابن عبد البر : هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره (فيض القدير : ٥٧٢/٢) ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥) .

أقول قولي هذا ـ أيها الإخوة ـ وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة :

وجوب تبليغ الرسالة إلى العالم :

بعثة محمد ﷺ رحمة ونعمة وهداية ، فعلينا أن نستفيد منها بالاتِّباع والعمل وحُسْن الفَهم والإيمان والجهاد من أجل هذا الدِّين العظيم .

وعلينا بعد ذلك أن نُبلِّغ هذه الرسالة إلى العالم ، لا يجوز أن نكون أنانيين ، ونحتكر هذا النور لأنفسنا .

إنَّ رسالة محمد عليه الصلاة والسلام رسالة عالمية ، هكذا أكَّد القرآن في عشرات الآيات في سوره المكيَّة عالميَّة هذه الدعوة : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ، ﴿ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)، ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (يوسف:١٠٤)، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨).

هذه العالمية تفرض علينا أن نبثَّ هذه الدعوة ، ونمدَّ شُعاعها في الآفاق .

حرام علينا ـ نحن المسلمين ـ أن تجد الأديان الباطلة مَن ينشرها في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وأن تُرصد لها مئات الملايين بل آلاف الملايين ! ـ حتى لنشرها بيننا ، التنصير يعمل عمله لينصِّرنا ـ نحن أتباع محمد ﷺ ، ونحن أتباع الدعوة الحقَّة ، الدعوة الخاتمة ، الرسالة العامة الخالدة ، لا نبذل جهدًا يُذكر لنشر دعوة الإسلام . والدعوة الآن مفتَّحة الأبواب .

قلتُ في خطبة من الخطب هنا : إننا الآن لسنا في حاجة إلى السيف . وقام مَنْ قام من الناس الذين لا يفقهون حديثًا فقالوا : يُريد أن يُبطل الجهاد! أيُّ جهاد

وليس معنا سيفٌ ولا قنبلة ذرِّيَّة؟ وكيف نجاهد بالسيف ونحن لم نجاهد باللسان والبيان والقلم[1]؟!

الإنجيل تُرجم إلى مئات وآلاف من اللغات واللهجات المحليَّة في العالم، ونحن لم نستطع أن نترجم القرآن إلى اللغات الحيَّة ترجمات نطمئنُّ إليها. الإذاعات الآن مُوجَّهة يمكن أن تخاطب العالم في كلِّ مكان، ما أكثر ما نسمع صوت الإنجيل من كذا، ومن كذا، فأين صوتُ القرآن؟ أين صوتُ الإسلام بلغات العالم؟ أين نحن من هذا؟

هل بلَّغنا دعوة الإسلام تبليغًا صادقًا؟

إنَّ الله سائلنا عن ضلال هذه الأمم. هذه الأمم لم تبلغها دعوة الإسلام بلوغًا حقًّا يحملها على التفكير والنظر فيها، إنما بلغتها بلوغًا مُشوَّهًا، بلوغًا قاصرًا، وتوارثوا عن الإسلام من عهد الحروب الصليبيَّة أقاصيص وأباطيل، ما أنزل الله بها من سلطان، تُصوِّر محمدًا ﷺ بأنه رجلٌ كذَّاب مُفْترٍ، قام والسيف في يمينه يضرب به من ناحية، ويده الأخرى تأخذ النساء إليه، إلى آخر ما قالوا من تزويرات وأكاذيب.

نحن في حاجة إلى أن نُزيل آثار هذا العدوان وهذا الافتراء، وأن نقدِّم لهم صورة صحيحة عن الإسلام.

أين ما صنعنا من هذا؟ أين ما رصدنا من هذا؟ أين الدُّعاة القادرون على التحدُّث بلغات مختلفة، يستطيعون فيها أن يُبيِّنوا عن الإسلام، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤)، فإذا كان لساننا عربيًّا نتكلَّم بالعربية، ولكن كيف نُبيِّن لغير العرب، لأجناس العالم؟ لا بدَّ أن نفهم لغتهم، بل لا بدَّ أن نعرف كيف نصل إلى عقولهم وقلوبهم، كما يفعلون هم بنا.

---

(١) انظر: موسوعة (فقه الجهاد) للشيخ القرضاوي، حيث فصَّل فيه أنواع الجهاد ومراتبه. من إصدرات مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد، ومكتبة وهبة، القاهرة.

إن المُبشِّرين إذا ذهبوا إلى منطقة من المناطق أو إقليم من الأقاليم ، درسوا كلَّ ما فيه : القبائل التي تسكنه ، وما بينها من صلات ، أو ثارات قديمة ، وما بينها من مخالفات أو موافقات ، عقائدها ، المذهب الفقهيَّ الذي يسود بينها ، الطَّريقة الصُّوفية التي تنتشر فيها ، الأفكار التي تشيع عندها ، الأمثال التي يضربونها ، العادات المتمكِّنة ، اللهجات . هكذا يفعلون ، فماذا فعلنا نحن أمَّة الرسالة العامة الخالدة الرَّحمة للعالمين ؟ إن الله سائلنا عن هذا .

دلائل صدق النبي ﷺ كثيرة :

والله إنَّ صدق الإسلام لا ريْب فيه ، الدلائل على صدق الإسلام أكثر من أن تُحصَر . ولو أردنا أن نتحدَّث عن هذا لطال بنا الحديث ، وقد حدَّثتُكم في عدَّة خطب عن صدق محمد ﷺ ، وصحَّة نبوَّته ورسالته ، وقد قال أحد الكتَّاب الغربيين بالمنطق العقلي الفطري : ماذا تطلب ممَّن يدَّعي لك أنه بنَّاء أكثر من أن يبني لك صرحًا ، من المتانة بحيث يبقى مئات السنين ، ومن السَّعة بحيث يَسَع مئات الملايين ؟ كذلك ماذا تطلب ممَّن جاء بدين هدى الله به مئات الملايين ، وعاش أكثر من ألف سنة إلى اليوم ؟

هكذا قال المفكر البريطاني الشهير توماس كارلايل وغيره ، قال : ألا فليعلم الناس أنَّ مثل الباطل كمثل أوراق البنكنوت الزائف ، يمرُّ من يد إلى يد ، ثمَّ لا يلبث أن يُضْبَط ويُعرف أنه زائف ، فلا يرفع به أحدٌ رأسًا . أما الإسلام فهو دينٌ باقٍ ، وأهله أشدُّ الناس حماسًا له ، من أيِّ أمة لدينها في الأرض . هكذا قال هذا الكاتب .

نحن أصحاب الدين الحقِّ ، والدلائل على صدق رسولنا ، وصحَّة ديننا أكثر من أن تُحصر ، وأشهر من أن تُذكر ، ولكنا نحن المقصِّرون .

الأديان الأخرى ـ حتى الأديان الوثنيَّة الآن ـ انتقل بها أصحابها إلى أمريكا ، فأين نحن؟

التنصير في ديار المسلمين :

نحن للأسف نُغْزى في عُقْر دارنا ، حتى إنَّ مِنَ المسلمين مَنْ يُنصَّرون . في خارج المنطقة العربيّة يُنصَّر المسلمون ، وينتقل الشخص من اسم إسلاميٍّ إلى اسم غير إسلاميٍّ . ولكن في المنطقة العربية اكتفى المُبشِّرون منذ عهد (زويمر)[1] أن يُخرجوا المسلم من الإسلام ، ويُشكِّكوه فيه ، وإن لم يدخل في دين آخر . بحسبه أن يعيش متأرجح العقيدة ، شاكًّا مُضْطربًا ، لا هو بمسلم ولا هو غير مسلم .

ما أحوجنا إلى أن نبذل لديننا ، كما يبذل الآخرون لدينهم . لا يجوز أن يعمل الناس للباطل ، وأصحاب الحقّ لا يعملون له . نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

* * *

(١) رئيس إرساليَّة التبشير في البحرين في بدايات القرن العشرين الميلادي ، من أشهر أقواله : تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها . انظر : الغارة على العالم الإسلامي صـ٨٠ .

(٢)
عناصر الخلود في هذه الأمة

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

المرض يصيب الأمم كما يصيب الأفراد :

تمرُّ بالأفراد حالات يضعف فيها المرء ، أو يمرض ، أو يصيبه الهوان . ولكن ليس معنى مرض الفرد أنه ميِّت ، وليس معنى ضعف الفرد أنه هالك . وكذا الأمم تُصيبها حالات من الضعف ، وحالات من الهوان ، تفقد فيها القوَّة ، وتفقد فيها العزَّة ، ولكن لا يعني هذا أن الأمة قد ماتت ، أو أنها ستموت لا محالة .

وهكذا مرَّت على أمَّتنا فترات وفترات ، حتى وصلنا إلى الفترة التي انتهينا إليها في عصرنا هذا .

كنا في القمَّة فأصبحنا في السفح ، كنا في المقدِّمة فصرنا في المؤخِّرة ، كنا في رأس القافلة فأصبحنا في ذيلها ، كنا أمةً قائدة فأصبحنا أمةً تابعة ، كنا نقود فأصبحنا نُقاد ، كنا نسود فأمسينا نُساد ، كنا ننتج فبتنا نستهلك ، كنا نُنْشِئ فأمسينا نستورد ، كنا نُرسل فأصبحنا نستقبل ، كنا نُعطي فأصبحنا نأخذ . هكذا صارت أمتنا .

الأمة الإسلامية أمَّة مَجْد وعزّ :

لم تكن أمتنا كذلك ، أمتنا هي الأمة التي سادت الأمم ، وكانت كما قال الله : ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣)، وكانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١١٠) حقًّا ، كانت هذه الأمة تقود ولا تُقاد ، وتسودُ ولا تُساد .

المجد السياسي لأمة الإسلام :

بلغ من مجدها السياسي أن أصبحت كلمتها العليا ، وكلمتها الأولى في الأمم ، وكلمة خلفائها هي السائدة المسيطرة على العالم ، وكان خليفتها يتحدَّى السحابة

في سمائها ويقول : أيَّتها السحابة شرِّقي أو غرِّبي ، وأمطري حيث شئتِ فسيأتيني خَراجُك[1]! هكذا بلغ مجد الأمة السياسي .

المجد العسكري لأمة الإسلام :

وبلغ مجدها العسكري أن أصبحت هي الأمة المرهوبة ، تُنصر بالرعب مسيرة شهر ، كما قال ﷺ[2] .

لم تكن أكثر الأمم عددًا في ذلك الوقت ، ولا أعظمها عُدَّة ، ولكنَّها انتصرت على جيوش الدول الكبرى ، انتصرت على جيوش كسرى وقيصر ، كان المسلمون في اليرموك ثلاثين ألفًا ، وكان الروم مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف! هكذا قدَّروا تلك الجيوش ، ومع هذا انتصرت القلَّة على الكثرة .

انتصرنا نحن المسلمين على جيوش كسرى ، وعلى جيوش قَيْصَر ، وانظر معارك : القادسية ، واليرموك ، وأجنادين ، ونهاوند ، وفتح دمشق ، وفتح فلسطين ، وفتح مصر ، انظر إلى هذه الفتوح ، في أقلَّ من قرن من الزمن كان المسلمون يُسيطرون على مقاليد معظم الدنيا القديمة .

في وقت واحد أيام الدولة الأُمويَّة كان هناك عدد من القادة ، كلُّ واحد في طرف من أطراف العالم : قتيبة بن مسلم الباهلي هناك على أسوار سمرقند ، ومَسلَمة بن عبد الملك ـ أخو الخليفة ـ هناك أيضًا في الشرق الأقصى ، ومحمد ابن القاسم بن محمد الثقفي يفتح بلاد الهند والسند ، وموسى بن نُصير يفتح الأندلس ، وقد انضم إليه طارق بن زياد،وعقبة بن نافع يفتح بلاد المغرب وتونس وما بعدها .

هكذا كان قادتنا ، في وقت واحد يفتحون أطراف العالم .

هكذا كان مَجْدُنا العسكري .

---

(١) انظر : صبحي الأعشي (٣/٢٨٥) .

(٢) في الحديث : «أُعطيتُ خمسًا لم يعطهنَّ أحد قبلي ـ وذكر في أوَّلها ـ ونُصرتُ بالرعب مسيرة شهر» . متفق عليه : رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) ، كما رواه أحمد (١٤٢٦٤) ، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) ، عن جابر .

وقد بلغ عمر بن عبد العزيز أنَّ ملك الروم استذلَّ أسيرًا مسلمًا ، فأرسل إليه يقول : إذا بلغك كتابي هذا فخلِّ سبيله ـ أطلق سراحه ـ وإلا غزوتك بجنود أوَّلها عندك وآخرها عندي[1]. وما إن وصل الكتاب إلى ملك الروم حتى أطلق سراح المسلم .

وكذلك فعل هارون الرشيد من بعده ، وكذلك فعل المعتصم في واقعته المعروفة حينما لُطمت امرأة مسلمة على خدِّها فصاحت : وامعتصماه . فما إن وصل الخليفة هذه المقولة حتى جيَّش الجيوش ، ولقي الروم في واقعة شهيرة في التاريخ ، واقعة (عَمُّورية) ، وانتصر لتلك المرأة[2].

هكذا كان مَجْدنا العسكري .

المجد الاقتصادي لأمة الإسلام :

أما مجدنا الاقتصادي ، ففي زمن عمر بن عبد العزيز كانوا يبحثون عن فقير يعطونه الزكاة في بعض البلاد فلا يجدونه .

بعث والِي عمر بن عبد العزيز على إفريقيَّة يحيى بن سعيد إليه يقول : بحثتُ عن فقير مسلم أُعطيه الزكاة فلم أجد ، عن فقير من أهل الذِّمَّة فلم أجد . فأرسل إلى الخليفة أمير المؤمنين عمر يسأله : ماذا أفعل ؟ فقال له : اشْتَرِ بها رقابًا فأعتقها[3].

حرَّر الإسلام الناس من الفقر ، فبدأ يُحرِّرهم من الرِّق ، الإسلام لم يصنع الرِّق ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي محمد بن عبد الحكم صـ١٦٨ .

(٢) فتح المسلمون (عموريَّة) في رمضان سنة ٢٣٠هـ ، بعد حصار دام ستة أشهر . انظر : تاريخ الطبري (٩/٥٧ - ٧١)، والكامل لابن الأثير (٦/٤٨٠) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/٢٨٦) ، وفي نخوة المعتصم قال الشاعر عمر أبي ريشة :

رُب وامعتصماه انطلقت ... ملءَ أفواه الصِّبايا اليُتَّم

لامست أسماعهم لكنها ... لم تلامس نخوة المعتصم

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٦٥ .

إنما وجده ، وإنما استحدث العتق[1]، الإسلام استحدث العتق ، ولم يستحدث الرِّق[2] ، ومن مصارف الزكاة مصرف : ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ (التوبة:٦٠)، في تحرير الرِّقاب من الرِّق والعبوديَّة .

هكذا كان مجدنا الاقتصادي ، وكنا أغنى دولة في العالم .

الضعف بعد القوة :

ثمَّ دار الزمن دورته ، وللتاريخ دورات ودورات ، وإذا بهذه الأمة تضعف بعد قوَّة ، وتذلُّ بعد عزَّة ، وتهون بعد كرامة .

مرَّت علينا فترات من التاريخ نعرفها ، زحف علينا الفرنجة من الغرب ، والتتار من الشرق ، ولم يحدث ذلك إلا بسبب من المسلمين أنفسهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(يونس:٤٤). تمزَّق المسلمون وتفرَّقوا ، وانحرفوا عن كتاب الله وسنَّة رسوله ، وساء فَهمهم للإسلام ، وساءَ إيمانهم بالإسلام ، وساءَ تطبيقهم للإسلام ، فعُوقِبوا بتسليط تلك الأمم عليهم .

ومع هذا لم تستسلم الأمة لهذا الغزو ، فسرعان ما هيَّأ الله لها رجالاً من داخلها يقودونها بزمام الإيمان ، ويُعيدونها إلى حظيرة الدِّين ، وينفخون فيها من روح الإسلام ، فتتجدَّد الأمة بعد بِلَى ، وتَقْوى بعد وَهْن ، وتعزُّ بعد ذلٍّ ، وتجتمع بعد تفرُّق . إن لم تجتمع كلُّها فعلى الأقلِّ اجتمع بعضها على أيدي هؤلاء القادة

---

(١) استحدث الإسلام العتق ، فجعله من القربات والطاعات التي يُتقرَّب بها إلى الله تعالى ، فقال سبحانه : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾(البقرة:١٧٧) ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (البلد:١١-١٣)، وعن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : «أيما رجل أعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار». متفق عليه : رواه البخاري (٢٥١٧) ، ومسلم (١٥٠٩) ، كلاهما في العتق ، وألزم به في كفارة القتل الخطأ ، والظهار ، واليمين ، والجماع في نهار رمضان .

(٢) للشيخ الدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله رسالة نافعة بعنوان (نظام الرقِّ في الإسلام) ، أوضح فيها موقف الإسلام من الرقِّ ، وكيف عامل الإسلام الرقيق؟ وكيف حرَّرهم من الرقِّ ، وأجاب فيها عن بعض التساؤلات . وقد طبعتها دار السلام بالقاهرة .

المؤمنين : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، وسيف الدين قُطُز ، ومَن بعدهم . استطاع هؤلاء أن يقفوا في وجه الزَّحف الذي جاء من الغَرب ومن الشَّرق ، في ساعة غفلة من الأمة ، وفي ساعة ضعف من الأمة ، وساعة تفرُّق ، فحقَّق الله على أيديهم الانتصارات العظيمة ، واستعادت الأمة مَجْدها ، ودخل التتار في دين الإسلام ، التتار الغالبون دخلوا في دين المغلوبين مختارين!

هكذا كانت الأمة ، تضعف وتنام ، ولكنها لا تموت ، هذه الأمة قد تنام ، وهذه الأمة قد تُنوَّم وتُخدَّر ، ولكنها لا تموت ، ولن تموت ، لأنها آخر الأمم ، الأمة الخالدة ، الأمة الأخيرة ، التي تحمل آخر رسالة من الله إلى الناس .

عناصر الخلود في الأمة :

لهذا أودع الله فيها عناصر الخلود ، فلا يمكن أن تزول :

أولا : حفظ القرآن والسنة :

أول عناصر الخلود في هذه الأمة : أنَّ كتابها محفوظ ، وسُنَّة نبيِّها محفوظة ، مصادرها الأصيلة لا يمكن أن تذهب ، ولا يمكن أن تُحرَّف .

التوراة حُرِّفت وبُدِّل فيها كلام الله ، وهذا أمر اتَّفق عليه أهل الشرق وأهل الغرب ، حتى الغربيون أنفسهم بيَّنوا ما حدث في التوراة من تحريف .

لقد ذهب الإنجيل ، فلم نعد نعرف الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى أين هو؟ هناك أربعة أناجيل اختيرت من نحو سبعين إنجيلاً كانت موجودة[1] ، وهذه الأناجيل كتبها رجال من حواريِّ عيسى ، أو مَن بعد الحواريين ، تلاميذ تلاميذه . ولكن أين الإنجيل الأصلي ؟ لا نجده .

أما القرآن فهو كتابُ الله الباقي ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) . تكفَّل الله بحفظه ، ولذلك نحن نقرأ القرآن كما كان في عهد النبيِّ ﷺ ، نقرأه بغَنِّه ومَدِّه ، وحركاته

---

(١) وهي : إنجيل متَّى ، وإنجيل مرقص ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنَّا . ولمعرفة حقيقة هذه الأناجيل ، وثبوت تحريفها ، وتاريخ تدوينها ، ومَن هم أصحابها ، ومترجموها؟ راجع ما كتبه رحمت الله الهندي في كتابه (إظهار الحق)، ومحمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية).

وسكناته ، ونقرأه كما كُتِب في عهد عثمان إلى اليوم ، في مصاحف لم يجرؤ أحد أن يغيِّر فيها شيئًا ، إلا النَّقْط والشَّكل .

هذا القرآن محفوظ ، وما يُبيِّنه من السنَّة محفوظ ، في عمومه وجملته ، لأن حفظ المبيِّن يستلزم حفظ بيانه ، كما قرر الإمام الشاطبي رحمه الله .

وورد عن الإمام عبد الله بن المبارك ، أنه سئل : هذه الأحاديث المصنوعة؟! قال : تعيش لها الجهابذة ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] .

والأمة محفوظة أيضًا بحفظ مصادرها .

ثانيًا : وجود الطَّائفة القائمة على الحق :

ثم من عناصر الخلود في هذه الأمة : أنَّ فيها طائفة قائمة على الحقِّ ، لا يضرُّها مَنْ خالفها ، حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك . فـ« لا تجتمع هذه الأمَّة على ضلالة أبدا»[2] ، يظلُّ فيها مَنْ يقول الحقَّ ، ومَنْ يقاوم الباطل ، ومَنْ يدعو

---

(١) فتح المغيث (٢٤١/١) .

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧) ، وقال : غريب من هذا الوجه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨) ، دون قوله : «ومَن شذَّ شذَّ في النار» ، وضعفه النووي في شرح مسلم (٦٧/١٣) ، ورواه الحاكم في العلم (١١٥/١) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٣) ، وقال : غريب من حديث سليمان عن عبدالله بن دينار لم نكتبه إلا من هذا الوجه ، وقال المناوي في فيض القدير (٣٤٤/٢) : قال ابن حجر رحمه الله : في تخريج المختصر ، حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السنة ، ورجاله رجال الصحيح لكنه معلول ، فقد قال الحاكم : لو كان محفوظا حكمت بصحته على شرط الصحيح ، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال ، فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب والمضطرب من أقسام الضعيف ، وقال السخاوي في المقاصد صـ٧١٦ : بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره . قال القرضاوي : ولكن هناك من الدلائل ما يشهد لهذا الحديث ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٨١)، فوجود هذه الأمة الهادية بالحق ، يمنع أن تجتمع على ضلالة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام:٨٩) ، ومنها قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة:٥٤)، ومنها أحاديث الطائفة القائمة على الحق إلى قيام الساعة ، التي سماها العلماء ، (الطائفة المنصورة) . . فليعلم هذا .

إلى الخير ويحارب الشرَّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٨١) ، ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام:٨٩) ، لا تخلو الأرض من قائم لله بالحُجَّة .

هذه الطائفة التي يُسمِّيها العلماء (الطائفة المنصورة) ، وهي التي صحَّ بها عدد من الأحاديث ، عن عدد من الصحابة[١] .

ولذلك تظلُّ هذه الأمة قائمة ما دامت فيها هذه الطَّائفة ، وما دام فيها من أهل العلم في كلِّ خَلَف ، وفي كلِّ جيل ، مَن ينفون عن ميراث النبوَّة « تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[٢] .

سيظلُّ في هذه الأمة مَن يُجدِّد الله به أمر دينها ، من علمائها الربَّانيين ، وأئمَّتها الصادقين[٣] .

لن تجتمع هذه الأمَّة على ضلالة أبدًا ، فهذا من سرِّ قوَّتها .

ثالثًا : ظهور القوة الذاتيَّة في الشدائد والكروب :

ومن عناصر الخلود لهذه الأمة : أن فيها قوَّة كامنة . هذه القوَّة الكامنة لا تبرز ولا تتجلَّى إلا في ساعات الشدائد والأزمات ، حينما يكفهرُّ الجو ، وتتلبَّد سماؤها بالغيوم ، وحين تحيط بها الشدائد والكروب ، وتنزل بها المُلمَّات والخطوب ، هنا تظهر هذه القوَّة الذاتية .

---

(١) رُويت في ذلك أحاديث صحيحة عن جابر بن سَمُرة ، وجابر بن عبد الله ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعقبة بن عامر ، وعمران بن حصين ، وقُرَّة بن إياس ، وعمر بن الخطاب ، والمغيرة بن شعبة ، وثوبان ، وأبي هريرة ، وأبي أمامة الباهلي ، انظر : أحاديثهم في صحيح الجامع الصغير من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) .

(٢) رواه البيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (٢٠٩/١٠) ، وصححه الألباني في المشكاة (٥١) .

(٣) عن أبي هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدد لها دينها » . رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١) ، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧) ، والحاكم في الفتن والملاحم (٨٥٩٢) ، وسكت عنه ، ولكن نقل تصحيحه المناوي في « فيض القدير » (١٨٤٥) ، فلعله سقط من المطبوع ، وسكت عنه الذهبي . والبيهقي في المعرفة (٢٠٨/١) .

ظهرت أيام الردَّة في عهد أبي بكر ، وظهرت أيام الصليبيين ، وظهرت أيام التتار ، وظهرت في مقاومة الاستعمار الحديث ، الذي احتلَّ بلاد المسلمين كلَّها تقريبًا . ولا زالت هذه القوَّة تظهر ما بين الحين والحين .

ظهرت في أفغانستان حينما قاوم أبناؤها بأسلحتهم الخفيفة والبسيطة أعتى قوَّة إلحاديَّة في الأرض ، وفي التاريخ ، وهي قوَّة الاتحاد السوفيتي .

ظهرت قوَّة هذه الأمة الكامنة في الانتفاضة الفلسطينية ، في الانتفاضات المتتابعة ، فهي ليست انتفاضة واحدة ، الآن الانتفاضة الثانية ، وقبلها الانتفاضة الأولى ، وقبلها ثورات وثورات ، ومقاومات ضد الاحتلال البريطاني ، وضدَّ التسلُّل الصهيوني من قديم .

كلُّ هذا يدلُّ على القوَّة الكامنة في هذه الأمَّة .

هذه القوَّة الكامنة هي التي جعلت إخواننا في الجزائر يقاومون الاستعمار الفرنسي ، الذي احتلَّ بلادهم قرنًا وثلث قرن من الزَّمان ، وحاول أن يُجرِّدهم من كلِّ قوَّة ، وأن (يُفَرْنِسَهم) عقيدة ولغة ، أن يسلخهم هذا السلخ ، ولكنه فشل ، وظهرت القوَّة الكامنة في حرب التحرير الجزائرية ضدَّ الفرنسيين .

هذه الأمة لا تموت ، أمة حيَّة ، مهما حاول الآخرون أن يُذلُّوها ، أو يُمزِّقوها ، أو يقضُوا عليها ، فهيهات هيهات .

إنَّ أمتنا تملك من عناصر الخلود ، وعناصر القوَّة ، ما يجعلها قادرةً على أن تعيد بناء نفسها من جديد ، وأن تتبوَّأ مكانتها تحت الشمس من جديد ، وأن تقول لأعدائها : لا ثم لا ، لن أستسلم ، ولن أموت ، ولن أنهزم .

هذه هي أمة محمد ، أمة القرآن ، أمة الإسلام ، أمة الأبطال عبر التاريخ .

الأمة قادرة على أن تحيا ، وتخلد ، وتبقى ، وتتحدَّى ، إذا عرَفت سرَّ قوَّتها ، وسرَّ خلودها .

سرُّ قوَّة الأمة :

سرُّ قوَّتها يتمثَّل في عدَّة عناصر :

أولاً : الاستمساك بشرع الله :

أول هذه العناصر : الاستمساك بشرع الله ، أن تعرف الأمَّة أن مصدر عزَّتها وقوَّتها في الاستمساك بالعروة الوثقى ، بكتاب ربِّها وسُنَّة نبيِّها ، فلا عِزَّ لها بغير ذلك ، كلمة قالها ابن الخطاب : إنا كنا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام ، فمهما نلتمس العزَّ بغيره أذلَّنا الله[1].

لا بدَّ أن تعرف الأمة ذلك .

وقد جرَّبت المنظومات المختلفة : الاشتراكية ، والقومية ، والثورية ، وغيرها ، فلم ينفعها ذلك كلُّه[2]. ما نفعها إلا حينما قالت : الله أكبر . ومشت وراء نداء الإيمان .

الاستمساك بشرع الله ، بدين الله الحقِّ ، إذا فهمناه الفَهم الصحيح ، بعيدًا عن غُلوِّ الغالين ، وتسيُّب المتسيِّبين ، إذا فهمناه الفَهم الوسطي المستنير ، وهذا هو العنصر الأول .

ثانيًا : احترام سُنن الله في الأنفس والآفاق :

العنصر الثاني : اتِّباع سُنن الله ، احترام سنن الله في الآفاق ، وفي الأنفس ، في الكون ، وفي المجتمع .

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٦١/١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١) .

(٢) بيَّن الشيخ القرضاوي أثر هذه المنظومات ، وما جرَّته على الأمة من نكبات وويلات ، عقائديًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا ، في سلسلة حتمية الحل الإسلامي ، كتاب (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا) ، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ، وقال في كتاب (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) : لقد جرَّبت أمتنا الحلول المستورد من الشرق والغرب ، فلم تحقق أملها المنشود ، في تزكية الفرد ، ورقي المجتمع ، ولا في صلاح الدين ، وعمارة الدنيا ، ولم تجنِ من ورائها إلا النكبات والتمزُّق الذي نشهد آثاره اليوم . صـ٢٠٢ .

هذا الوجود ليس سائبًا ، هذا الكون منضبط بسنن وقوانين إلهيَّة لا تلين لأحد ، ولا تُحابي أحدا ، مَن راعاها راعته ، ومَن حفظها حفظته ، ومَن ضيَّعها ضيَّعته ، وداست عليه ولم تبالِ به .

رعاية الأسباب والمُسبَّبات واجبة :

هذه هي السنن ، شبكة الأسباب والمسبَّبات . مَن جدَّ وجد ، ومَن زرع حصد ، مسلمًا كان أو كافرًا ، برًّا كان أو فاجرًا . لا يمكن أن تُعطي الأرض ثمرتها لمسلم تركها ولم يهتمَّ بها ، لم يلقِ فيها البذرة الطيِّبة ، ولم يتعهَّدها بالسقاية والرعاية ، ولكن تعطي ثمرتها للفاجر والكافر إذا أحسنا استخدامها ، وأحسنا الاهتمام بها .

لا يمكن أن ينصر الله عزَّ وجلَّ الجهل على العلم ، ولا الفوضى على النظام ، ولا التخلُّف على التقدُّم ، ولا الإهمال على الإتقان ، ولا الفُرقة على الوحدة ، لا يمكن ، فلله سننٌ لا بدَّ أن نرعاها ، فإذا لم نرعَ سنن الله لم تَرْعَنا .

أعداؤنا اليهود الذين احتلُّوا أرضنا ، وهتكوا عرضنا ، وسفكوا دماءنا ، قاموا على أساس من السنن : خطَّطوا ، ونظَّموا ، وتجمَّعوا ، وأعدُّوا القوَّة ، واستفادوا من تناقضات العالم ، ودرسوا ، وعملوا ، وكان لهم حكماء يجتمعون ويُدبِّرون ، ولكن أمتنا لم تخطِّط .

نقول : نحن ضحايا التخطيط الجهنَّمي اليهودي والصليبي والشيوعي . وإلى متى نظلُّ نحن ضحايا لتخطيط غيرنا؟ لماذا لا نُخطِّط لأنفسنا؟ أليس في رؤوسنا عقول وهبنا الله إياها؟ أليس عندنا أفضل كتاب أنزله الله؟ أليس لنا حضارة وتاريخ نقتبس منهما؟

إلى متى نظلُّ نقول : نحن ضحايا التخطيط الأجنبي؟

السنن لا ترحم ، لا بدَّ لهذه الأمة أن ترعى سُنن الله ، تعرف : بماذا تنتصر الأمم وبماذا تنهزم؟ بماذا تقوم وبماذا تسقط؟ هذا ما لا بدَّ منه .

ثالثًا : التعاون على البرِّ والتقوى :

العنصر الثالث لبقاء الأمة حيَّة قويَّة متحدِّية : التماسك ، التلاحم ، التساند ، التعاون على البرِّ والتقوى ، التواصي بالحقِّ والصبر ، أن يكون فيها « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا »[1] ، وأن تكون « كالجسد الواحد ، إذا اشتكى بعضه اشتكى كلُّه »[2].

هذا شأن الأمة الواحدة : « يسعى بذمَّتهم أدناهم ، ويُجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَنْ سواهم »[3]. هذا شأن أمتنا .

أما إذا تمزَّقت الأمة شرَّ مُمزَّق ، وأصبح بأسها بينها شديدًا ، وأصبح بعضها يذوق بأس بعض ، وأصبح بعضها عميلاً للقوى الأخرى ، وأصبح كلٌّ منهم يخاف الآخر ، فهنا وقعت الأمة شرَّ موقع .

ما تشكو منه أمتنا اليوم هذا الانفصال الحادَّ ، هذا الفصام النكد ما بين الحكَّام والشعوب . الشعوب والجماهير في واد ، والحكَّام في واد آخر ، والحكَّام كلٌّ منهم في واد غير وادي صاحبه ، وحتى الشعوب لم تعُد كتلة واحدة ، هناك مَن يدعون إلى تمزيق هذه الشعوب بدعاوى مختلفة .

وهذه الأمة يجب أن تترك كلَّ الدعاوى ، وأن تجتمع على الحدِّ الأدنى ، على ما يصير به المسلم مسلمًا ، على شهادة (أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله) . لا وقت للخلاف ، ولا وقت للفُرقة .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٨١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥) ، كما رواه أحمد (١٩٦٢٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠)، عن أبي موسى .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦) ، كما رواه أحمد (١٨٣٧٣) ، عن النعمان بن بشير .

(٣) جزء من حديث رواه أحمد (٦٩٧٠) ، وقال مخرجوه : صحيح وهذا إسناد حسن ، وأبو داود في الجهاد (٧٢٥١) ، والبيهقي في الكبرى كتاب النفقات (٢٩/٨) ، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٠) : حسن صحيح ، عن عبد الله بن عمرو .

في ساعات الشدائد يجتمع الناس وينسَون الخلافات ، ينسَون المعارك الجانبيَّة . كلُّ مَن يثير هذه المعارك الجانبيَّة ، وهذه الخلافات الجزئيَّة ، وهذه التفصيلات والتفريعات التي بين الناس بعضهم وبعض : هو خائن لهذه الأمة ، أو جاهل لا يعرف حقيقة المعركة بين الأمة وبين أعدائها .

لا بدَّ أن تتجمَّع الأمة ، أما إذا ظلَّت هكذا : الحاكم يعبد الكرسي من دون الله ، والناس تعبد الدنيا ، فهذا هو ما يضيِّع الناس ، ويضيِّع الأمة .

وهن الأمة اليوم :

كانت أمتنا قليلة العدد ، ولكنها كانت مرهوبة من العالم ، يهابها الناس ويرهبونها من مسيرة شهر[1] . والآن أمتنا مليار ونصف المليار من البشر ، ولكنها كما وصفها الحديث الشريف : « غثاء كغثاء السيل » . الأمة الآن في هذه المرحلة الغثائية .

والغثاء : ما يحمله السَّيْل من حطب وخشب وعيدان وقشٍّ وأوراق . أشياء كلُّها خفيفة سطحية ، ليست ثقيلة عميقة ، وأشياء غير متجانسة ، لا تجانس بينها . ثم إن السيل ليس له هدف ، إنه ينزل من هنا ويذهب إلى هناك ، وليس له مجرى معلوم ، ولا طريق مرسوم . وهكذا الأمة في المرحلة الغثائية ، ليس لها هدف ، وليس لها طريق ، وليس بينها تجانس ، وهي تجتمع على السطحيات التي تطفو ، أما الأعماق فلا يصل إليها أحد .

وهنا ينزع الله من صدور عدُّوها المهابةَ منها ، ويقذف في قلوبها الوَهْن . قالوا : وما الوَهْن ، يا رسول الله ؟ قال : « حُبُّ الدنيا وكراهية الموت »[2] . حينما يحبُّ

---

(١) متفق عليه عن جابر ، سبق تخريجه صـ٢٣ .

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٩٧) ، وقال مخرّجوه : إسناده حسن ، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧) ، وابن أبي شيبة موقوفا (٣٧٢٤٧) (٤٦٣/٧) ، والطيالسي (١٣٣/١) ، والبيهقي في الشعب موقوفا باب الزهد (٢٩٧/٧) ، والطبراني في مسند الشاميين (٦٠٠) (٣٤٤/١) ، وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١) ، وسعيد بن منصور في السنن (٢٨٩٧) (٣٢٠/٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه وإسناد أحمد جيد (٥٦٣/٧) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٨) ، عن ثوبان .

الناس الدنيا ويكرهون الموت ، هذا هو أساس الوهن ، الوهن أمر نفسيٌّ ، وهن النفوس هو ضعف النفوس ، وإنما تضعف النفوس إذا تشبَّثت بالدنيا ، وجرت وراء الدنيا ، وركضت وراء الشهوات ، وكرهوا الموت في سبيل الله .

أما حينما تتحرَّر الأمَّة من هذا الوهن ، فهي تُطلِّق الدنيا ، تُطلِّق الشهوات ، ولا يهمُّها أوقعت على الموت أم وقع الموت عليها ، لأنها تعتقد أنَّ الموت في سبيل الله هو عين الحياة : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة:١٥٤)، ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد:٤-٧).

تلك هي عناصر الخلود ، وعناصر القوَّة لهذه الأمة .

كيف تجتمع هذه الأمة ؟

ولن تجتمع هذه الأمة إلا إذا اتَّحد منهجها ، واتَّحدت غايتها ، أن تجعل غايتها رضوان الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم:٤٢) ، وأن تجعل طريقها هو الاستمساك بالإسلام ، بأحكام الإسلام ، وأخلاق الإسلام ، وقِيَم الإسلام ، وآداب الإسلام ، لا تحيد عنه قيد شعرة ، ولا تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض ، وإنما تؤمن بالكتاب كلِّه : ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة:٤٩).

بهذا تجتمع الأمة ولا تتفرَّق ، وإلا فهيهات أن يلتئم لها شمْل ، وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣) ، هو صراطٌ واحدٌ ، ومنهجٌ واحدٌ ، هو منهج الله وصراطُ الله . أما السُّبل التي على رأس كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه ، فهي التي تفرِّق الأمة[1].

---

(١) ففي الحديث الذي رواه ابن مسعود قال : خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ، ثم قال : « هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه ، وعن شماله ، ثم قال : هذه سبل ، قال يزيد : متفرقة على كلِّ =

هذه هي عناصر القوَّة لهذه الأمة ، إذا تمسَّكت بها ، وعضَّت عليها بالنواجذ ، والتقت عليها ، كان لها النصر ، وكان لها العزُّ ، وكان لها الخلود .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

الذكرى الثانية للانتفاضة الثانية :

بهذا اليوم تكون انتفاضة الإخوة في فلسطين ، انتفاضة الأقصى ، الانتفاضة الثانية المباركة ، تكون قد أكملت عامين ، منذ أن انطلقت شرارتها الأولى حينما دنَّس المجرم شارون أرض المسجد الأقصى[1] مُتحدِّيا أبناء هذه الأمة ، ومُتحدِّيا حضارتها ، ومُتحدِّيا تاريخها ، ومُتحدِّيا دينها .

مرَّت سنتان كاملتان على الانتفاضة الفلسطينية ، وقد زعم السفَّاح شارون حينما وصل إلى الحكم ، أنه في خلال مائة يوم سيقضي على الانتفاضة ، وسيجعل جمرتها رمادًا ، وكذب المجرم السفَّاح . لقد مضت مائة يوم ، ومائة يوم ، ومئات الأيام ، والانتفاضة باقية ، مرفوعة المنار .

لا تزال الانتفاضة مرفوعة الرايات ، لا تزال الانتفاضة تتحدَّى جبروت الصَّهاينة ، وتتحدَّى استكبار الأمريكان ـ وراء الصَّهاينة ـ الذين يُمدُّونهم بكلِّ القوَّة ، بالمال والسلاح والتأييد السياسي .

= سبيل منها شيطان يدعو إليه» . ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣). رواه أحمد (٤١٤٢) ، قال مخرجوه : إسناده حسن ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١١١٠٩) ، وابن حبان في المقدمة (٦) ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

(١) كان ذلك في يوم الخميس ١ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م ، وللشيخ القرضاوي خطبة بعنوان (دروس من انتفاضة الأقصى) ، نشرت في الجزء الخامس ، صـ ١٣٧ .

لا زالت الانتفاضة المباركة راسخةَ الجذور ، راسبةً في الأعماق .

لا زال الشعب الفلسطيني يُرينا من العجائب ، ومن البطولات ، ومن الروائع كلَّ يوم ما نهتزُّ له طربًا ، وما نعتزُّ به ونفخر .

حيُّوا معي هذا الشعب الفلسطيني ، حيُّوا معي هذا الشعب الصامد الصابر المصابر المرابط ، حيُّوا رجال هذا الشعب ، حيُّوا نساء هذا الشعب ، حيُّوا شباب هذا الشعب ، حيُّوا شيوخ هذا الشعب ، حيُّوا أطفال هذا الشعب ، حيُّوا هذا الشعب كلَّه .

بُوركت يا شعب فلسطين ، حُيِّيت يا شعب فلسطين ، لقد أزلت العار والشنار عن هذه الأمة القاعدة ، الأمة التي خذلتك .

خذلان الشعب الفلسطيني :

نشكو إلى الله الذين خذلوا الشعب الفلسطيني ، نشكو إلى الله الحكَّام والرؤساء في الجامعة العربية .

أين الجامعة العربية ؟ أين الدفاع المشترك ؟ أين القومية ؟ أين الإسلام ؟ أين الروابط ؟ أين الوشائج ؟

تركوا الشعب الفلسطيني يقاوم الجبروت الصهيوني ـ ووراءه ومعه الاستكبار الأمريكي ـ بالحجارة ، أو بالأسلحة الخفيفة التي تنفد ذخائرها في بعض الأحيان ، ولا يجد من الذخائر ما يسنده ، كما فعل أبناؤنا وإخوتنا في جنين ، الذي جعلهم يستسلمون نفاد الذخيرة ، نفدت ذخيرتهم ، نفدت جِعاب الرصاص ، وما أكثر الذخائر والأسلحة المخزونة والمركونة ، والتي أكلها الصدأ في مخازن البلاد العربية ! أسلحة دُفعت فيها المليارات من أقوات الشعوب ، من عُصارة أرزاق الناس ، تُدفع هذه الأموال لشركات صنع السلاح ، ليس لشيء غير ذلك ، تريد ألا تتوقَّف شركات السِّلاح عن الصُّنع ، ثم نأخذها ولا نفعل بها شيئًا .

نترك إخوتنا الأبطال الصَّناديد الرجال بدون سلاح ، حتى الأطفال والله رجال ، هم رجال وإن كانوا أطفالاً ، هم أسود وإن كانوا أشبالاً ، هم أساتذة وإن كانوا

تلاميذ ، هم كبار وإن كانوا صغارًا ، الصغار حقًّا هم الذين خذلوهم ، هم الذين باعوهم بثمن بخس ، دراهم معدودة .

القرآن سمَّى الدنيا كلَّها ثمنًا قليلاً ، وقال : ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ﴾ (التوبة:٩) ، الدنيا كلُّها ثمن قليل ، الدنيا لا تزن «عند الله جناح بعوضة»[1].

هؤلاء باعوا الفلسطينيين بجناح بعوضة ، بجزءٍ صغير صغير من جناح البعوضة !

بل إنَّ بعضهم باعهم بغير ثمن ، لم يأخذوا ثمنًا ، وإنما هم قدَّموا أنفسهم قرابين لهؤلاء الناس ، بضاعة رخيصة ليس لها ثمن ، وليس لها مُشْترٍ وليس لها مَن يسومها!

باعوا الفلسطينيين بثمن بخس ، أو بغير ثمن .

اثْبت شعب فلسطين فالنصر آت :

يا أيها الفلسطينيون الأبطال ، يا أيها الشعب الصَّابر المصابر المرابط : اثبت على عهدك ، لا تتردَّد ، ولا تتلكَّأ ، وثق أنَّ النصر لك إن شاء الله ، إنَّ مع اليوم غدًا ، وإنَّ غدًا لناظره قريب ، وإنَّ مع العسر يسرًا ، وإنَّ بعد الليل فجرًا ، وقد علَّمنا التاريخ أن النصر يأتي من عند الله من حيث لا نحتسب . نحن نرتقب نصر الله عزَّ وجلَّ ، ولن نستسلم أبدًا .

أدعو إخوتي الفلسطينيين أن يثبتوا ولا يتردَّدوا ، وأن يُقْدموا ولا يُحْجموا .

وأرجو من أبي عمَّار أن يتعلَّم من الدرس ، فلم يشفع له ما قال عن إخوانه حينما جرَّمهم ، واتَّهمهم بأنهم إرهابيُّون ، وأن عملهم من الإجرام والإرهاب! لم

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) ، وقال : حديث صحيح غريب من هذا الوجه ، وابن ماجه (٤١١٠) ، كلاهما في الزهد ، والحاكم في الرقائق (٣٠٦/٤) ، وصححه ، وقال الذهبي : زكريا بن منظور ضعفوه ، عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني لغيره في الصحيحة (٩٤٣) .

يشفع له هذا عند هؤلاء الطغاة الظالمين . فليتعلَّم من هذا الدرس ، ولتتعلَّم منه هذه الأمة .

إننا نثق أنَّ النصر آتٍ إن شاء الله .

لقد انتصر الصليبيون مائتي سنة ثمَّ خذلهم الله ، وانتصر التتار بعدهم ، ثمَّ خذلهم الله ، وانتصر الاستعمار بعد ذلك ثمَّ أخرجه الله من ديارنا . وستنتصر هذه الأمة ، وسينتصر هذا الدين ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢،٣٣) . نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

* * *